

من عتبات التصوف "الحكم العطائية" أصالة الحكمة الدينية و التربية الروحية

محمد بوزيزاوي
جامعة أحمد دراية (01) الجزائر
bouzizaouimohammed@hotmail.com

المستخلص

العتبات الفكرية تستمد قوتها من التاريخ واللغة والدين، وتساهم في خلق معالم ثابتة وراسخة ذات خصوصية معينة تلفت الإنتباه، وهذا ما تبلور مع نص "الحكم العطائية" التي لامست العقل والعاطفة والروح الإنسانية، بخصوصية صوفية ذوقية تربوية غفل عنها الكثير، لما فيها من الحكمة العميقة والديانة الوسطية والتجربة الذاتية الصادقة؛ عبر عنها "ابن عطاء الله السكندري"، فصارت عتبة صوفية حاضرة زمانياً ومكانياً بداية من القرن السابع الهجري إلى يومنا هذا. والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان: لماذا خلت هذه الحكم من عنوان، كعتبة مفتاحية أولية لا يمكن تجاهلها؟ والملاحظ ضمناً أن العنوان "الحكم العطائية" استطاع أن يفرض نفسه عبر الزمن والتاريخ واللغة، معبراً عن أهمية الحكمة والتصوف، وكاشفاً عن شخصية مؤلفها الدينية واللغوية والتربوية. وبهذا تتجلى شعرية هذه العتبة التاريخية، المتشكلة من مائتين وأربع وستين حكمة.

الكلمات المفتاحية: العتبة، الحكمة، الحكم العطائية.

*تم تقديم جزء او كل من هذه المخطوطة في المؤتمر العلمي الدولي للأعمال والتعليم والعلوم الانسانية

Thresholds of Sufism in "The Hikam - The Wisdom of Ibn `Ata' Allah", Authenticity of Religious Wisdom and Spiritual Education

Mohammed Bouzizaoui
University Ahmed Draya of Adrqr 01-Algeria
bouzizaouimohammed@hotmail.com

ABSTRACT

Intellectual thresholds draw their strength from history, language and religion. They contribute to the creation of permanent and anchored landmarks with a noticeable specificity, which crystallized in the text of "The Hikam" or The Wisdoms of Ibn Ata' Allah al-Iskandari " that affected the mind, the emotion and human soul, with a mystical and educational characteristic that so many others eluded, thanks to the deep wisdom, religiosity and moderation as well as sincere personal experience, expressed Ibn Ata' Allah al-Iskandari, to become a temporal and spatial Sufi threshold since the 7th century AH to the present day. In this regard, the question that would be asked is: Why are these wisdoms untitled, as first threshold that cannot be ignored ? We can tacitly notice that the title "The Hikam" has imposed itself through time, history and language, expressing the importance of wisdom and Sufism, and revealing the religious, linguistic and educational character of its author. This is how the poetics of this historical threshold, which consists of two hundred and sixty-four wisdoms, is manifested.

Keywords: Threshold, wisdom, wisdom of Ibn Atta' Allah

المقدمة

النصوص الجميلة تفرض نفسها على القارئ والمستمع، وعلى التاريخ ويشار لها بالبنان، ومنها "الحكم العطائية" لصاحبها "أحمد بن محمد بن عطاء الله الجذامي السكندري المصري" والتي حملت زبدة حياته الدينية والفكرية في المدرسة الشاذلية، وقد جمعت بين الحكمة الدينية والتربية الصوفية، تركت بصمتها عبر التاريخ إلى يومنا هذا. لما تجسده من أبعاد دينية تربوية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وسلوكيات السلف الصالح إلى الله. وحتى نعطي لهذه النصوص التراثية حقها من التمهيد والدراسة نحتاج إلى تطبيق النظريات المعاصرة على النصوص التراثية، وذلك من خلال عتبة العنوان الحاضر الغائب، ومن خلال مجموعة من الأشكاليات: كيف اكتسبت الحكم العطائية الشهرة الواسعة، رغم عدم توسيمها بعنوان؟ وما هي بعض الأبعاد التربوية والحكمية والصوفية التي جسدها الحكم؟ وأخيراً ما هو السر وراء جمالية لغتها البيانية؟ وحتى نتضح معالمها أكثر لابد من التطرق لماهية العتبة والحكمة، للوصول إلى حقيقة تطبيق نظرية العتبة لفك شفرة هذه الحكم وتحليل بعض جوانبها، للوصول إلى حقيقة جمال لغتها.

ماهية العتبة

العتبة لغة جاء في لسان العرب في مادة "عتب" (ابن منظور): العتْبَةُ = أسْكُفَةُ البَابِ التي تُوطَأُ؛ والجمع عَتَبٌ وَعَتَبَاتٌ؛ والعَتْبُ = الدَّرَجُ؛ وَعَتَبُ الدَّرَجُ = مراقبها؛ وَعَتَبٌ عَتْبَةٌ = اتخذها؛ والعَتَبَانُ = عَرَجُ الرجل؛ وَعَتَبُ العُودِ = ما عليه أطراف الاوتار من مقدمه؛ وعتب البرق عتباناً = برق برقاً ولاءً؛ وأصل العَتْبُ = الشدة؛ والتَّعْتَبُ = التَّجَنُّبُ؛ وعاتبته معاتبته وعتاباً = لأمه؛ والاعتتاب = الانصراف عن الشيء.

معاني عربية متعددة، منها: ما يوطأ، ومنها الدرجات والارتقاء، وهي معاني قريبة من المعنى المستعمل اصطلاحاً. ومعاني أخرى منها: العرج والتوالي، والشدة، واللوم، والانصراف، وهي معاني تمس النفس.

العتبة اصطلاحاً:

فالعتبة مصطلح نقدي معاصر غربي، يمت بالصلة للرواية أكثر من الاجناس الأخرى، ولكنه آلية لفك شفرات النص وتأنيبه. وهي من مقومات الشعرية التي اعتمدها "جيرار جينيت" في دراساته. وقد خصها بكتاب سماه "عتبات" -seuils-، ترجمه الكاتب الجزائري، عبد الحق بلعابد؛ وقدم له الناقد الجزائري "سعيد يقطين" مشيراً إلى: (جيرار، 2008) أن النص فضاء عتبي، تكثر فيه العتبات، تولد التفاعل وتحقق الإمساك بمجمل العلاقات النصية، تتخلله عتبة المعيار النصي التي تحدد طبيعة النص الأولي عن طريق ترصيف الكلمات وتنضيد الجمل، واصطفاف البنيات اللفظية. وبذلك جعل العتبة محور النص الجانب الاستقطابي فيه، بما يشكله من اتساع يفتح على اللغة والتاريخ والواقع. ولا يمكن فهم علاقاته دون الوقوف على عتباته، وهي التي تبرز قوة الطرح الإبداعي، فترى بعض الكتب نافذة في طبعاتها، وكتب أخرى كثيرة الاستخدام. والسر يكمن في المعيارية والفضائية والقوة العتبية. كل هذه العمليات تجعلنا نرى النص بناءً لا يمكننا الانتقال بين فضاءاته المختلفة دون المرور من عتباته، ومن لا ينتبه إلى طبيعة ونوعية العتبات يتعثر بها، ومن لا يحسن التمييز بينها من حيث

أنواعها وطبائعها ووظائفها يخطئ أبواب النص" (جيرار، 2008). وتعريفها يتصل بالمناسبات أحد المتعاليات النصية عند "جينيت"، فيعرف المناسبات " هو كل ما يجعل من النص كتاباً يقترح نفسه على قرائه، أو بصفة عامة على جمهوره، فهو أكثر من جدار ذو حدود متماسكة، نقصد به تلك العتبة" (جيرار، 2008).

وقد ذكر الدكتور "نوارى سعيد أبو زيد" تعريفاً ضمناً يجعلها تتصل بالقصة والسرد، بقوله " ما من أي شيء يدخل في تأليف القصة وبناء المحكي، إلا ويتمتع بسطوة وظيفية ويؤدي دوراً في بناء صرح الدلالة التي تتجاوز حدود اللغة المحنطة داخل الكلمات والجمل، بل الدلالة المنفتحة على العوالم الحقيقية للمحكي" (نوارى، 2012) و يؤكد كلامه بتعريف آخر " إن العناوين التي تصدر بها المتون الحكائية أو نصوص القصص عادة هي عبارة عن علامات سيميوطيقية تتجاوز كونها مجرد عنوان، إلى كونها حاملة الدلالة الكلية للمتن، واختصاراً للمضمون، وتعبيراً عن وجهة نظر، وتوجيهاً لفكر أو رأي أو موقف من قبل السارد" (نوارى، 2012)، وبذلك لا يخرجها عن السرد كنمط يتميز بمقومات ثابتة متضمنة ضمن النص، قد تكون المكان أو الزمان، وقد تكون الشخصيات والعقد المتعددة. إضافة إلى عناوين الفصول الروائية أو القصصية التي تعطي مستوى أولي للفهم.

توسعت دائرة العتبة إلى جميع الخطابات الأدبية في مرحلة التكوين النصي، وفي مرحلة القراءة النصية. فكلمة زادت مركب نصي انعكس فهماً على أنه عتبة نصية. لتوضيح خفايا النص وأبعاده المختلفة ومظاهره المتكشفة. ويتعمق أكثر في التنظير والتقديم لمنهج العتبات بالجدي في الطرح، وبالتنوع للعلوم اللغوية التي استفادت من الدرس اللساني، "و حين نسّم هذا الحقل بالجدة فإننا لا نقصد الغرابة، بل الجدة في الطرح والتناول وعمق التصور وعمق القصد؛ وهي عناصر استفادت من إنجازات الدرس اللساني الحديث، والدرس السيميائي، وتحليل الخطاب، والشعرية، والسردية، وفن التصوير، والتشكيل، وعالم الإشارة والدعاية" (عبد الرزاق). وهنا قد يطرح سؤال متى تصير هذه المركبات النصية عتبات؟ فيجيب "عبد الرزاق بلال" قائلاً "إلا بعد الانتقال من مرحلة الطباعة والإخراج، وساعتئذ تستفيد مما يصطلح عليه بالمكملات، وهي ترجمة أقرب لكلمة (peritexte)، التي تدخل في اهتمامات محقق النصوص وناشرها، وأحياناً بمساعدة المؤلف نفسه. بل إن عتبات النص تساعد في فتح مغاليق المخطوطات وتساعد في قراءتها وتحديد قيمتها المعرفية والتاريخية" (عبد الرزاق). فالعتبات تحتاج إلى من يقرأها، ويتفاعل معها، ليبرز جمالياتها وفنياتها، والرسائل المحمولة فيها. خاصة إذا كانت غامضة غير مطابقة لمحتوى النص، تثير تساؤلات وخلفيات، وربما تأويلات تتناسب والمضمون العام للنص. فالمحققون والناشرون يقدمون خدمة جليلة لتذليل العتبات وترتيبها وفق ما يحتاجه المتلقي، وهم يقدمون أول قراءة ضمنية يفرضها الواجب البحثي، من أجل إخراج الكتاب في حلة بهية، وبعد ذلك تأتي القراءة الثانية الأكثر شراسة، والتي تكون عن طواعية وفق منهج نقدي يوفر آليات التفكير.

وبالبحث في أصل الكلمة، بعدما نسبت إلى جيرار جينيت، يأتي من يردُّ نشأة الكلمة إلى "كلود دوشيه". حيث اهتم بالعنوان باعتباره المدخل الرئيسي للنص " ولأهمية العنوان نشأ علم خاص يعنى بها ويدرسها، وينظر في صلتها بما تحتها، وفي علاقتها بصاحبه، إنه العنوان أو (latitrologie) الذي يمثل علماً، أو بالأحرى فرعاً معرفياً يعود الفضل في إرسائه إلى كلود دوشيه" (نوارى، 2012)

وأما عربياً فأرجعها البعض إلى المرويات الشفوية المنقولة عن الشيخ، وجسدت فيما بعد كتابة، صارت تُحترم فيما بعد ويقام لها وزن، وذكر "المقريري" كيف كان يحاسب المؤلف على رؤوس ثمانية: الغرض، العنوان، المنفعة، المرتبة، صحة الكتابة، الصناعة، كم فيه، أنحاء التعاليم المستعملة فيه، والتي تجعل المؤلف أهلاً للثقة، وأشار الجاحظ إلى الختم والعنوان حتى لا ينسب الكتاب لغير أهله، وكذلك التوقيعات من عتبات النص، والمقدمة والخاتمة التي تطورت فيما بعد لتأخذ أبعاداً فنية بلاغية، وتمثل صورة العتبات المجسدة هي الغربية، والتي ساهمت في تحسين منهجية البحث. (عبد الرزاق). وهذه النظرية هي من قبيل البحث في التراث عن صورة مطابقة لمفهوم العتبة عند الغرب، فكانت التحولات الفكرية والتأليفات المتوالية خاصة في عصر التدوين، ارهاصات أولى تبشر بظهور علوم لها وزنها وثقلها وتاريخها وهذا ما حصل بالفعل. لتأتي مرحلة الشرح والتحليل والتدقيق، فعولجت هذه النصوص كمعاني مختلفة. والتي كانت عتبات بالبيدهة. وبه قالوا "أي كتاب لا يمكن أن يقدم أن يقدم عارياً من نصوص العتبات، ولا يمكنه بحال من الأحوال الفكك من سلطتها الشكلية" (عبد الرزاق). وبنقلنا الشعرية إلى العالم العربي انتقلت معها العتبات وصار البحث جارياً في مظاهرها، وهكذا كلما سمعنا بنظرية جديدة هرعنا إلى التراث، نفتش ونتبجح، ونسبنا أن الحياة سنن، ولم نسع جاهدين لخلق بديل منافس يعطي للماضي مصداقية، ويجدد التراث بما يتماشى والذوق والبعد الإسلامي.

الحكمة الصوفية

وعلم الحكمة: هو علم يبحث في حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية وموضوعه الأشياء الموجودة في الأعيان والأذهان، وغايته هي التشرف بالكمالات في العاجل والفوز بالسعادة الآخروية في الأجل (مصطفى). فالحكمة لها ارتباط وثيق بالفلسفة التي تسعى لتنوير العقل والبحث في منتجاته، ولها ارتباط بالدين كذلك لأنها تسعى للارتقاء بالإنسان في طريق الله. والحكمة عند العرب هي "قول بليغ موجز صائب يصدر عن قول أو عن تجربة وخبرة بالحياة، ويتضمن حكماً مسلماً في أمر بخير أو نهى عن شر. وقد كثرت الحكم والحكماء في الجاهلية، وكان في كل قبيلة حكيم تفرع إليه في الشدائد والمعضلات والمنافرات. والحكم من البلاغة بمكان كبير لإيجازها، ووضوحها، وفصاحتها، ودقة معانيها وجلال هدفها، وهي تكسب الكلام سحراً وحلاوة؛ وتجعله مقبولاً في الذوق، قريباً إلى القلب، مسلماً به من العقل والشعور والوجدان" (محمد، 1992). وقد تميز العرب بالحكمة فكان لا يسود القبيلة إلا شيخ له حكمة، وسداد رأي، ورغم ما تميزوا به من الشفوية في النقل إلا أن الكثير من كلامهم كان يحمل حكمة، خاصة اللغة العربية التي تميزت بجمالها وبلاغتها وقصر لفظها، فكانت الحكمة في الخطابة وفي الشعر: قال قس بن ساعدة الأيادي، في سوق عكاظ: "أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، ضوء وظلام، وبر وأنام، ولباس ومركب، ومطعم ومشرب ونجوم وثمور" (مناع، 1991) وهو من عرب الجاهليين وقد نطق بالحكمة، فكان يرشد الناس إلى ما ينفعهم.

ومن حكم الإمام علي-كرم الله وجهه-يقول (الأمدي، 1992): "الأباطيل موقعة في الأضاليل" ويقول: "الأجل محتوم والرزق مقسوم" ويقول كذلك: "الإخلاص ثمرة العبادة" ويقول كذلك "الأنس في ثلاث: الزوجة الموافقة،

والولد الصالح، والأخ الموافق" ويقول كذلك: " الصبر أحسن الإيمان، وأشرف خلائق الإنسان". وهي كثيرة تصل إلى آلاف الحكم، كلها تصب في معاني الإسلام والإيمان والإحسان. ولاكتشاف حقيقة الأمر لابد من الوقوف وقفة تحليلية مع ما ذكرناه من حكم، تجد الحكمة الأولى: تحذرك من الباطل الذي هو عكس الحق، وتبين لك أن نتيجته إلى الضلال لا محالة، وهذه رسالة الإسلام، التي هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ أي من باطل الجاهلية إلى حق الإسلام. أما الحكمة الثانية التي اقتطفناها من الكتاب، فتزرع فينا عقيدة الرضا والتسليم والعلم المطلق بأن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى، وأن الأجل محدود، فلا يحاول الإنسان أن يدير أمراً دبره الله -سبحانه وتعالى-، وفيها تحذير أيضاً، بأن يغتتم الإنسان منحة عمره فيما يرضي الله ويتعد عن التسوية، لأنه من أخطر أمراض النفوس. وفي الحكمة الثالثة إشارة إلى مقام الإخلاص الذي هو لب العبادة وأساسها، فلا عبادة دون إخلاص، وإذا لم توصلك العبادة إلى الإخلاص فراجع نفسك، وراجع علاقتك بالله-سبحانه وتعالى-. وفي الحكمة الرابعة حالة قلبية يتلمسها في علاقاته؛ وهي الأنس، وأكبر الأنس هو الأنس بالله سبحانه وتعالى؛ وفيها أيضاً دعوة لتوطيد العلاقة الزوجية بالمودة والاحترام، والعلاقة الولدية بالتربية والإصلاح، والعلاقة الأخوية بالموافقة وحسن الخلق، حتى تصل إلى الأنس. وأما الحكمة الخامسة فتقوم على الصبر الذي يعتبر من المقامات الضرورية للسير في طريق القوم. والصبر هو تدريب النفس على التحمل في سبيل الوصول إلى المبتغى، ومن ذلك تدريبها للتسير مطمئنة في طريق الله، متفرغة للعبادة ومتخلية عن الشهوات والشبهات والعلائق الدنيوية. وقد ضرب الصحابة في بداية الدعوة أروع الأمثلة للصبر، في سبيل إعلاء كلمة الله وتوطيد أسس الإسلام، فكانت حياتهم مدرسة لمن جاء بعدهم يتعلمون منها، وينقلون صورها للبشرية جمعاء. فهذه الأمثلة من حكم الإمام على-كرم الله وجهه-تعتبر بداية لظهور حكم ذات أبعاد إسلامية تربية روحية. تنتشر من معين الدين، ومن القرآن ومن السنة النبوية ومن سير السلف الصالح. ومنها حكم الحبيب بن علوي الحداد: "مَا تَرَكَ مِنَ الْكَمَالِ شَيْئاً مَنْ أَقَامَ نَفْسَهُ مِنْ رَبِّهِ؛ مَقَامَ عَبْدِهِ مِنْ نَفْسِهِ" (الحداد، 1998) إنه التصوف والتربية الروحية والعيش في حضرة الله، وهي حضرة الكمال، ولا يمكن ولوج هذا الباب، إذا لم ترتق عن رعونات نفسك وشهواتها، وتتخلى عن التعلق بما في هذا الكون، وهذا تنبيه من الامام الحداد للسالكين بالحد من الوقوع في المحذور، وهو تعظيم الفاني على الباقي، وهو من طباع النفس الأمانة بالسوء. فلا تركز إليها وكن دائماً منتبهاً لهذه النفس واختر لها الأحسن وهو الكمال والقرب من الله. ومنها قوله كذلك: "كَيْفَ يَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُرِضِي الْمَخْلُوقِينَ بِسَخَطِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحداد، 1998) استفهام انكاري، يحذرك فيه بطريقة غير مباشرة من خروجك من زمرة المؤمنين إذا كنت ترضي المخلوقين وتسخط الله-عز وجل-والعكس هو الصواب وهو عين الكمال، أي إرضاء الله ولو في سخط الناس. وهو يسألك لتجيب نفسك انطلاقاً من شعورك الداخلي الذي يحمل إلى القرب من الله. وبهذه الحكمة يعرج على الرضا ولكن في حالة بعيدة عن المعنى المقامي له. فالمؤمن الحقيقي هو الذي ينشد رضا الله سبحانه وتعالى. ويقول في حكمة أخرى: "مَنْ أَهْمَلَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَخَافُ؛ اسْتَعْمَلَ الْكَذِبَ حَيْثُ يَرْجُو" (الحداد، 1998) وكذلك أحمد سكيرج التجاني له حكم، منها: "انْتَظِرْ الْفَرَجَ فِيمَا تَوَلَّاهُ مِنْ مَوْلَاكَ عِبَادَةً سِرًّا، تَعَيُّنُ إِجَابَتَهَا فِيمَا لَوْفَتْ ظُهُورُهُ رَهِيْنًا؛ وَعَلَامَةُ قُرْبِهِ لَكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ مِنْ ذَاتِكَ يَجِيءُ وَبِالظَّفَرِ وَبُلُوغِ الْأَرْبِ قَمِيْنًا، فَلَا تُوقِعْ نَفْسَكَ فِي الْحَرْجِ لِنَلَا تَنَارِغَ الْأَقْدَارَ بِفَهْمِكَ فَتُحْرَمَ الْإِجَابَةَ مِنْ رَبِّكَ" (محمد ا.). العبد يريد

من مولاه كل خير، فيدعوا في أقبال ولهفة، ويريد أن يتحقق له ما يريد بسرعة، ونسي أن ينتظار الفرج من الله عبادة وقرب، وأن الله سبحانه وتعالى يستجيب لك متى شاء وكيف شاء فهو الخبير العليم بأحوالنا وما يصلح لنا. وخير من تجلت الحكمة في كلامه، المربي الجزائري، "سيدي أبي مدين الغوثي" الذي صنّف جَمّاً جليلاً في معاني القوم. تعتبر بادرة قوية لحصر معاني التقوى في عبارات وجيزة، يعجز الجاهل بعلوم الشريعة عن إدراك معانيها، ولكن مَنْ سمعها يدرك أنه يستطيع أن يحقق معانيها إذا رجع واستقام إلى ربّه. فهي دليل لسيرنا إلى الله في مقامات الإحسان، لأن بمطالعتها يحصل الارتياح، وتزداد الصدور انشراح. لما فيها من الحقائق والرفائق. ولأن الحكماء تسبق أنوارهم أقولهم. ولأن الحكمة كلمة تشتمل على معنى يحصل به الانتفاع. والحكم الغوثية لسيدي أبي مدين الغوثي، وصلت إلى مائة وسبعين حكمة (170)، اشتملت معانيها حول: النفس ومعالجتها، وصحبة الشيوخ مع تجنب صحبة الأشرار، والتربية، والذكر، والمراقبة، والتفويض، والتوكل، والقناعة... الخ (أحمد بن، 1989). وهي كلها تصب في طريق القوم، وتنتشل الإنسان من برائين الدنيا إلى اشراقات الآخرة. يقول: "لَا وَصُولَ إِلَى اللَّهِ إِلَّا مِنْ بَابِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ" (أحمد بن، 1989). إشارة وتوجيه واضح للسبيل القويم وهو صحبة النبي-صلى الله عليه وسلم- فمن أراد الوصول إلى الله فعليه بمحبة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعليه بالافتداء بسنته، والتعلق بالقرآن، والسير على خطى السلف الصالح. وأنت في طريق الله لا يد لك من آداب تلتزمها مع الله ومع العباد، وخير ما يرفع درجة الإنسان هو الأخلاق والآداب. ومن الآداب مع الخلق هو إنصاف الناس من نفسك؛ أي معرفة الحقوق والواجبات حتى لا تظلم أحداً، وإذا نصحك إنسان فاقبل نصيحته ولو بالسماع، وحتى وإن كان صغيراً، فالحكمة ليست محصورة على أحد. وبهذا تدرك المنزلة العالية. فيقول: "أَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَأَقْبَلِ النَّصِيحَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونُكَ تُدْرِكُ أَشْرَفَ الْمَنَازِلِ" (أحمد بن، 1989).

عتبة الحكم العطائية

الواضح من الوهلة الأولى أن "ابن عطاء الله السكندري" لم يضع لها عنواناً قاراً، بل تشكل عبر الزمن وفرض نفسه بدلالاته الحاملة للحكمة والموعظة والتربية الأخلاقية. قيل: لما صنفها عرضها على شيخه "أبي العباس المرسي"؛ فتأملها، وقال له: لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء وزيادة (الحكم العطائية، 1985). وهنا يتضح أنها بلا عنوان، وأن مؤلفها لم ينته منها، لأن العنوان دلالة على اكتمال العمل، ومن منظور أوسع يتبين انشغال "ابن عطاء الله" بمضمونها طيلة حياته. والأوضح أنها خلاصة كتبه في علم الحقيقة (التنوير في اسقاط التدبير، وتاج العروس الحاوي إلى تهذيب النفوس). فالعنوان هو رمز تاريخي إنساني ينسب إلى صاحبه وإلى زمانه، لم يستطع أحد تحريفه أو تغييره أو حمل معنى آخر في مكانه. وهو ينبض بالتجديد والدوام لما يدخل تحته من النصح والتوجيه، ولما يحمله من معاني لها شرارة متصلة بالمعاني القرآنية والأحاديث النبوية، تقودك إلى المهمة العالية، وتلامس وجدانك بسحر لغتها البراقة والبليلة، وبموسيقى كلماتها الرنانة، تصل بك أحياناً إلى حد الانبهار والتأمل وعدم إدراك حقيقة معانيها. في رمزية لها خصوصية التصوف الإسلامي المعتدل، فالعنوان قنبلة موقّنة، قد نمز عليها مرراً كرام، ولكن عند الوقوف والتأني ندرك أن وراءها أصول دينية وقيم أخلاقية ونظرة تربوية سلوكية. يقودها رجل قدم حياته لخدمة الدين ولنصح الغير، فانعكس ذلك في حياته وبعد مماته،

لتبقى حكمه راسخةً تحمل كل من يحملها، وتحثني بمن يطلبها. فغياب العنوان أو حضوره لا ينقص من منهج صاحبه ومن مدلول حكمه. وهنا السر وراء شعرية وجمالية هذه الحكم.

جاء في كتاب "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" لابن عجيبة مقولةً، اعتبرها البعض مغالاةً "قال الفقيه البُنَّاني: كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحياً؛ ولو الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم" (أحمد ب.). فهي قوية في معانيها، قوية في لفظها، تحتاج منك خلفية فكرية لتبسيطها وتقريب فهمها، وهذا الكلام يخرج من عاطفة قوية وصادقة وإحساس يلامس جذور ما تؤول إليه الحكم. وهي شعرية داخلية اختلجت فيها المشاعر الصادقة، وطريقة الحقيقة، فظهرت بتعبير يمس الوحي السماوي، القرآن الكريم، ويمس الصلاة الرابطة القوية بالله سبحانه وتعالى. وهذا ما أشار إليه "البوطي" إنها العاطفة الدينية التي حرمتنا منها قسوة المتطلبات الدنيوية، وفتنة المغريات المستشرية، وهذه الحكم تحمل هذه العاطفة الصافية البعيدة من البدع والمنكرات، والموصلة إلى محبة الله والخوف منه والرضا والتوكل عليه (محمد سعيد، 2003). وذكر محقق كتاب ابن عطاء الله "التنوير في اسقاط التدبير" من أهم وأشهر الكتب، من تأمله قال: ما هذا منشور، إن هذا إلا لؤلؤٌ منثور، كل سطر منه جنةٌ قد حفت بالثمار، وأحذقت بأنوار الأزهار، وكل سطر لو يباع بثمن بخسٍ لأشترى بألف دينار (ابن عطاء ، 2008).

وقدم الكثير من العلماء والشراح رأيهم حول الحكم، باعتبارها كل متكامل في مجال العقيدة والتصوف، والعاطفة الدينية السمة. فمن حيث النظم "الحكم نُظمت نظماً غنائياً روعي فيه أن تكون إشارات إلى أحوال النفوس، والنفوس تتغير وتتبدل وتعتزها ألوان من الكدرة والصفاء، فما يفهمه هذا قد لا يفهمه ذلك" وما يرتضيه قوم قد يرفضه آخرون " (زكي). كما تميزت بلغة ربما حملت جزء من الصعوبة والغرابية، "والواضح أن قوة المعنى جلبت قوة اللفظ، وجلبت قوة الأسلوب، فتمازجت القوى لتولد الشعرية القوية النابعة من صدق العاطفة الدينية، والعلم بمقاصد الشريعة الإسلامية. وكتاب الحكم، "غني عن التعريف لشهرته ولما يحتوي من المعلومات القيمة والأسلوب البارع البديع، فهو مجموعة حكم صفيت من ناحية التعبير والأسلوب فكانت مثلاً عالياً للأدب الرفيع، و صفيت من حيث الفكرة فكانت مثلاً رائعاً للفكر الصوفي" (نور الدين). فجعلت من صاحبها أديباً متمكناً له قوة نظم ودقة اطلاع، وجعلت منه صوفياً يحسن انتقاء مفاهيمه وترتيبها في بناء متقن له شعريته ولمسته الفنية وحضوره المتكرر في كل زمان ومكان. فهو من سلالة التربية الشاذلية التي ملأت الدنيا بالذكاء والأوراد " يجب أن نعلم أن واضع الحكم العطائية ابن عطاء الله السكندري-رحمه الله-أحد الصالحين وكبار الصوفيين، وهي حكم عظيمة تختص بالسلوك والطريق، وليست حكماً عقلية مجردة كما هو مشهور مصطلح الحكمة، وتتضمن هذه الحكم قواعد أساسية ونصائح للمريد لمعالجة بعض الأمور التي تعترضه في سلوكه" (محمد ب، 2009). والحكم لها قدوة في ذلك ومنهج واضح. رغم أنها " ليست وحياً قرانياً حتى نلتزم بنصوصها، فقد تكون في بعض المواضع تفسير أدواق ومشرب مؤلفها دون أدواق غيره" (محمد ب، 2009). ويشير الشيخ "زروق" وإن من أجل كتاب وقع لهم في ذلك، وأنفعه لكل مرید صادق" كتاب الحكم العطائية الشاذلية التوحيدية العرفانية الوهيبية، عباراته راقية جامعة، وإشارات فائقة نافعة، تتلج الصدر وتبهج خاطر، وتحرك السامع لها والنظر مع تداخل علومه وحكمه وتناسب حروفه وكلمه، إذ كلُّه داخل في كلِّه، وأوله مرتبط بالأخير من قوله، بل كل مسألة منه تكلمة لما قبلها وتوطئة لما بعدها" (زروق، 2010). كما يقول "محمد سعيد رمضان البوطي" فلا اعلم كتيباً

صغيراً في حجمه انتشر في الأوساط المختلفة كانتشاره، وتقيلته العقول والنفوس، كتقبلها له، وهو مجموعة مقاطع من الكلام البليغ الجامع لأوسع المعاني بأقل العبارات، كلها مستخلص من كتاب الله أو من سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يدور حول التوحيد وحماية المسلم؛ وقسم يدور حول الأخلاق وتزكية النفس؛ وقسم يدور حول السلوك (محمد سعيد، 2003). وهو يؤكد أيضاً تماسك هذه الحكم وتمحورها حول العقيدة الصحيحة السليمة الموصلة للإيمان، وهي تكتمل بالأخلاق وتزكية النفس والخروج بها من الحرية الضيقة إلى سعة الإيمان وسعادة الروح واطمئنان القلب، وهي تكتمل أيضاً بالسلوك القويم. ومرد جميع ذلك إلى الإسلام والإيمان والإحسان.

والحكم العطائية نص نثري، عددها مائتان وأربع وستون حكماً، وعند "تاراس الكندي" مائتين وثلاث وستين، نقلها عن الأصل الذي ألفه ابن عطاء الله السكندري، وقد قسمها " ابن عجيبة " إلى خمس وعشرين باباً، نقل منها بعض الحكم للاستئناس كما أوردها الكندي: (باراس، 2016) ومنها (مِنْ عَلَامَاتِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ؛ نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الرَّذْلِ؛)، (سَوَابِقُ الْهَمَمِ لَا تَخْرُقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ)، (تَتَوَعَّتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ لِتَنْتَوِعَ وَارِدَاتِ الْأَحْوَالِ). (مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي الْأَمْرِ غَيْرَ مَا أَحَدَّثَهُ اللَّهُ)، (إِهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ الْمَوَاجَهَةِ . فَالْأَوَّلُونَ لِأَنْوَارٍ، وَهَؤُلَاءِ الْأَنْوَارُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ لَا لِشَيْءٍ دُونَهُ {قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرُهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} (الأنعام، 91)؛)، (تَشَوَّفُكَ إِلَى مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ الْغُيُوبِ، خَيْرٌ مِنْ تَشَوَّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ)، (كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ)، (لَا تَتَعَدَّيَنَّ هِمَّتَكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ الْأَمَالُ)، (لَا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ؛ فَتَكُونَ كَجَمَارِ الرَّحَى يَسِيرُ، وَالَّذِي ارْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي ارْتَحَلَ مِنْهُ، وَلَكِنْ ارْحَلْ مِنَ الْأَكْوَانِ إِلَى الْمَكُونِ {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} (النجم ، 42)، فَانظُرْ إِلَى قَوْلِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ((فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَبْتَزَّوْجَهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)) فَافْهَمْ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَمْرَ، إِنَّ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ وَالسَّلَامُ)، وقد تمحورت معانيها السامية في قالب معرفي دعوي، خلاصته إرتباط بالله أيها السالك واعتمداً عليه وأوكلت تدبيرك إليه، وتجه إليه في الدعاء بمعرفة وإخلاص وتفكر، لتشهده في حركاتك وسكناتك ومأكلك ومشربك وجميع حياتك، فهو الذي أظهرك وأظهر الوجود بمشيتته، سبحانه الظاهر معنى المحجوب حساً. لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار. هو أعلم بما يصلح لك، فلا تتناول على الخلق، وارض بما قسمه لك، ولا تغفل عما طلبه منك، لأنك بين الجبر والاختيار، فأحسن ما اختاره لك تصل إليه وتتور بأنواره. داعياً أياك للانشغال بعبودك لأنها تحجب عنك رؤية الحق، وابتعد عن أوصافك البشرية كالغفلة والمعصية والشهوة، واقتراب من الطاعة والعفة واليقظة، وترفع إليه حاجتك، وارحل إليه بكلك، فهو خالقك ويفرح بتوبتك وعودتك إليه. واصحب من يدلك عليه، ومن يذكرك به في زهد ورغبة وإدامة ذكر. بقلب حاضر منصف ذا خلق عال، ولا تحقرن من المعروف شيئاً لأنه من سنن الله العدل ومن معرفه الفضل، وابتعد عن الذل والطمع والوهم واتصف بالشكر والاحسان فإنها من علامات المحبة. وإذا رزقك الطاعة والغنى فقد رزقك الخير الكثير. واعلم أنك راجع إليه، فعش مع الواردات والأنوار واجعلك همك في إقامة الصلاة ليتطهر قلبك فتناجيه بصدق، فأنت أيها السالك إلى الله، بين القرب والبعد: فالنعيم قرب والعذاب حجاب وبعد، وتمام النعم النظر إلى وجهه الكريم،

والبعد هموم وأحزان القلب، والقرب أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك، والبعد الانشغال بالدنيا وأذواقها المرة، والقرب العلم النافع الذي يبسط الصدر وتحصل به القناعة والخشوع القلبي، البعد التأثر بالناس والتألم بدمهم، والغفلة بعد عن الله، وإنما جعل لك أعداء ليدوم إقبالك عليه وقربه منه. فالتواضع هو: ذم النفس وكسر ميادينها واستصغارها دون شكرها، وهو شهود الحق ومحبتة والسير إليه والصلة به.

وبهذه الحكم أجرى مسحاً نفسياً عقلياً قلبياً للأمراض والمعاناة والخلجات التي تراود السالك والمريد والعارف، واقتراح لهم حلولاً تنبع من ضوابط الدين ونقاء السريرة، ومن تعاليم القرآن والسنة النبوية، مستفيداً من تجارب السلف الصالح الذوقية والروحية المرقية في عالم الأحوال والمقامات للوصول إلى مدارج التوحيد وتعقب الجنان. والسعي للوصول إلى رؤية الله ذي الجلال والاکرام. ووضع عتبة راسخة لا تتبدل ولا تشوبها شائبة تنير البصير، وتنقي السريرة، وتغذي بالمعارف الكثيرة. وهي صالحة لكل زمان ومكان ولكل الأجيال لأن منبعها الفطرة السليمة والطريق المستقيم.

الخاتمة

وخلاصة البحث، تتجلى فيما تحمله عتبة "الحكم العطائية" من شعريات وتاريخيات وذوقيات، تكمن في حضورها الدائم إلى جانب معاني القرآن والسنة النبوية ومنهج التربية الروحية القائمة على الحكمة والنصح والفكرة العالية والارتباط الروحي والديني إصلاحاً للطاقات الإنسانية النفسية والقلبية والروحية. ولا ننسى اللغة الفيضانية الساحرة بتركيبتها المنسجمة والمسجوعة الحاملة للألفاظ القوية والمعاني العميقة. ومنه نخلص إلى:

من معاني العتبة (المرتقى، الدرج، الاتخاذ، الشدة، اللوم، الإنصراف...)، تؤدي إلى الارتقاء وتمس الجانب النفسي، فهي طريق للوصول إلى الآخر، ارتقاءً وتحليلاً أو لوماً وشدة، أو تعليماً أو مقاطعة من خلال اتخاذ موقف. وهي: العتبة مصطلح غربي نقدي سردي معاصر، تسمح للنصوص باكتساب قوة وتأثير، الغرض منها فك شفرات النص، وهي من مقومات الشعرية عند "حيرار جنيت"، لأنها تستقطب من اللغة والتاريخ والواقع، تتعلق بالمتعاليات الخمسة (التناصر، المناص، الميئناص، النص الاحق، النص الجامع)، وهي تبدأ من العنوان وتمس الحاضر، خاصة عند "كلود دشييه". وعريباً حددها "المقريزي" برؤوس ثمانية (الغرض، العنوان، المنفعة، المرتبة، صحة الكتابة، الصناعة، كم فيه، أنحاء التعاليم المستعملة فيه)، وأشار "الجاحظ" إلى الختم والعنوان حتى لا ينسب الكتاب لغير أهله، بالإضافة إلى التوقيعات، والمقدمة، والخاتمة.

-الحكم العطائية عتبة صوفية متصلة بالقرآن والسنة النبوية صالحة للزمان والمكان، نابعة من العاطفة الصادقة المخلصة. عنوانها حاضر غائب، متصل بحقيقة الدين (الإسلام، الايمان، الاحسان). وهي نظم وجداني يعالج أحوال النفس في وحدة متماسكة من أوله إلى آخره، رغم وجود من يشك في هذا التماسك لوجود سمة الغموض وقوة البلاغة. فهي مثال لأدب رفيع، واضعه "ابن عطاء الله السكندري" أحد العارفين الصالحين كبار الصوفية الشاذلية، لخص ثمرة جهاده من أجل إصلاح النفوس والقلوب وتهذيب السلوك، لتحقيق السعادة الأبدية.

-معنى (الحكم العطائية) نصحي معرفي دعوي، غايته الارتباط بالله، والاعتماد عليه، وترك التدبير إليه، والتوجه بالدعاء والمعرفة والإخلاص والتفكير إليه، لتشهده في جميع حياتك، فهو الظاهر الباطن، أظهرك للوجود ويبيّن لك الحدود، ومعالم الأنوار، وأمرك بالابتعاد عن أوصافك البشرية كالغفلة والمعصية والشهوة، والاقتراب من الطاعة والعفة واليقظة، مع دوام التوبة. واختيار مايساعدك للوصول إليه من صحبة وزهد وذكر، وقلب حاضر معه، دون ذل ولا طمع ولا وهم، فهو يريد عبداً تستمد من امداداته ووارداته، متصفاً بالشكر، عارفاً به، طالباً رضاه، ترجوه بقبض وبسط وابتلاء، فهو القاهر القادر، خلق ونسب إليك، أهداك الصلاة لتتاجيه بصدق عرفك بأوصاف ربوبيته لتتحقق بأوصاف عبوديته، فأنت المضطر إليه المتذلل الفقير، اتصف سبحانه بالستر والحلم والكرم. حث على ذم النفس واليقين به خائفاً مستقيماً، تفرد سبحانه وتعالى بكمال العز، وجعل النعيم قرب والعذاب حجب، وتمام النعم النظر إلى وجهه الكريم، الرزق قرب والهموم والأحزان بعد، العلم به قرب والغفلة عنه بعد، يريد دوام إقبالك عليه وقربه منه. فاقترب وتواضع لتشهد محبته، فترتقي بروحك في ميادين الغيوب جذباً أو سلوكاً، فهو المتصدق عليك بالأنوار والاذكار والآماد والامداد، وحضور الأفكار.

وبهذه الخصائص تميزت "الحكم العطائية" بعتبات مفتوحة، وحضور دائم استمد ابعاده من وسطية الدين، وحقيقة التصوف، مما أهلها لأن تكون مدرسة تربوية إصلاحية تهدف إلى إصلاح النفس والقلب وترتقي بالروح في طريق معرفة الله وعبادته والوصول إليه. وبهذا يبقى السؤال مطروحاً: متى نشهد توظيفاً للمعنى الديني والتراثي انطلاقاً من أبعاده الحقيقية للوصول إلى الحكمة الدينية والتربية الروحية؟

المصادر

- ابن عطاء الله. (2008). التنوير في اسقاط التدبير. القاهرة: المكتبة الازهرية.
ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. دار المعارف.
أحمد بن فارس. (بلا تاريخ). معجم مقاييس اللغة. القاهرة: دار الفكر.
أحمد بن مصطفى العلوي. (1989). المواد الغيثة. الجزائر: المطبعة العلاوية.
الأمدي. (1992). غرر الحكم ودرر الكلم. بيروت: دار الهادي.
الحداد. (1998). كتاب الحكم. دار الحاوي.
الحكم العطائية. (1985). سوريا.
باراس الكندي. (2016). شرح الحكم العطائية. سوريا: دار الحاوي.
بلال عبد الرزاق. (بلا تاريخ). مدخل إلى عتبات النص. بيروت: إفريقيا الشرق.
جنيت جيرار. (2008). عتبات. الجزائر: دار الاختلاف.
زروق. (2010). شرح الحكم العطائية. الجزائر: بيت الحكمة.
زكي مبارك. (بلا تاريخ). التصوف الاسلامي في الأدب والاخلاق. القاهرة: هنداوي.
محمد باسم دهمان. (2009). أذواق النقشبندية. سوريا: دار طيبة الغراء.
محمد سعيد رمضان البوطي. (2003). شرح الحكم. سوريا: دار الفكر.
محمد عبد المنعم الخفاجي. (1992). الحياة الادبية في العصر الجاهلي. بيروت: دار الجبل.
مصطفى عبد الله. (بلا تاريخ). كشف الظنون. بيروت: إحياء التراث العربي.
نواري سعودي. (2012). ممارسات في النقد واللسانيات. الجزائر: بين الحكمة.
نور الدين البريفكاني. (بلا تاريخ). شرح الحكم العطائية (تلخيص الحكم). القاهرة: العربي.
هاشم صالح مناع. (1991). روائع من الأدب العربي. بيروت: مكتبة الهلال.